المشرق

التذكار المئوي

لتحرير الكنيسة على يد

قسطنطين الكبير

بحث تاريخي نظري للاب فلوريان لافلي اليسوعي

انَّ في تاريخ البشريَّة احداثاً تسطع في سمائه سطوع الكواكب الزُّهر التي يستضيء بها المتحيِّر ويرجع اليها لتقويم سيره في البوادي والقفار . فتلك الوقائع على مثال النجوم اللامعة يسترشد بها الباحث لفكّ ألغاز التاريخ البشري وادراك فلسفته الغامضة

ولا شكَّ في انَّ الواقع الذي تحتفل النصرانيَّة بذكرى مئته السادسة عشرة في السنة الجارية هو من هذا الصنف اذ هو امرٌ جَلَل في ذاته وذو شأن عظيم في لواحقه وعواقبه يزيد به الحكم الملكي الذي ابرزه قسطنطين في ميلانو سنة ٣١٣ في اثر انتصاره على مكسنطيس ودخوله الى عاصمة الدنيا رومية متقنّعاً في ظلّ صليب المسيح فنشر قراراً منح فيه الحرّيَّة التامَّة للدين المسيحي بعد ان قضى اتباعه ثلاثمائة سنة يجاهدون في سبيله ويهرقون دماءهم في تعزيز رفعته واعلاء مناره حتى استشهد منهم عدَّة ملايين لإثبات حقوقه المقدَّسة

وما احرى جيلنا الحالي ان يحيي تذكار ذاك الحادث الجليل بازاء الحكومات العصريّة لتقتفي بآثار قسطنطين وتذود عن حمى الدين القويم . والحقّ يقال انّ قسطنطين لم يكن موجداً لحقوق الكنيسة لانّ الكنيسة نالت تلك الحقوق من الله الذي انشأها وجهّزها بكل اللوازم لحياتها وفرض على رُسلها وخلفائهم بان يبشروا كل الامم ويدعوهم الى الايمان . وانّما الفضل لقسطنطين لانّهُ ادرك تلك الحقوق وكان اوّل من اعلن بها رسميًا وحكم بمراعاتها . وعلى مثالهِ جرى كثيرون من الملوك فاستحقّوا بعملهم ان يصون الله حقوقهم كما صانوا حقوق كنيستهِ . وعلى خلاف ذلك لمّا نسي ملوك الشعوب وزعماء الامم تلك الحقوق المقدّسة فرفعوا عقبهم على احبار البيعة واضطهدوا ابناءها لم تلبث الدوائر ان تدور عليهم فهبطت بهم الفتن والثورات عن اوج عزّهم كما فعلوا بكنيسة المسيح

وعليهِ فانّ هذا التذكار المئوي لجدير باعتبار كلّ الامم المسيحيّة فيجب علينا ان نشكر الله الشكر الجميم على تحرير قسطنطين لكنيسة الربّ اذ اخرجها من الديماس حيث كانت تعيش بالضنك والمحن ورفع سراجها على المنارة ليقتبس من انوارها العالم كلّهُ وفتح كنوزها الالهيّة لتستغني بها كلّ اقطار المعمور

ولكن ان كان يحقّ لجميع الامم ان تستبشر بهذا العيد المئوي فلشرقنا العزيز احقّ بالفرح والشكر عليهِ اوجبُ لله اذ كانت وطأة الاضطهادات الاخيرة التي سبقت عهد قسطنطين اشدّ اذًى على نصارى الشرق حتّى انّ بعض اقطارنا الشرقيّة اتّخذت تلك المحن كتاريخ ردّت اليهِ وقائع بلادها

ومن ثمّ لا يسعنا نحن الشرقيين الّا ان نلبّي بسرعة الى صوت امام الاحبار الذي دعا العالم الكاثوليكي الى احياء ذكرى تلك النعمة الجزيلة في قلوب الجميع واسداء الشكر لعزّتهِ تعالى اذ حرّر كنيستهُ من ربقة ظلم الوثنيّة واخرجها ظافرة من ذاك النزاع المستطيل الذي كاد يمحو آثارها لولا مواعيدهُ عزّ وجلّ بان ابواب الجحيم لن تقوى عليها

وقد اراد قداستهُ تنشيطاً للاشتراك بهذه الاعياد وتعميماً لبهجة خلاتها ان يخصص لذكرها يوبيلاً عامًّا في رومية العظمى اوّلاً ثمّ في كافّة اقطار المعمور جعل مدّتهُ ثمانية اشهر من الاحد الجديد في غرّة نيسان الى ٨ كانون الاوّل عيد الحبل

بالعذراء مريم بلا دنس منح فيه غفراناً كاملاً على شروط معلومة أعلن بها حضرة نائب القاصد الرسولي في الثغر ونشرتها جريدة البشير في تاريخ ١١ نيسان

وقد اخذت الجماهير المجمهرة تتوارد يوماً بعد يوم الى زيارة امّ المدائن وتتشرّف بمواجهة الحبر الاعظم الذي يستقبل الوفود بقلب يتوقّد حباً ويتلهّب غيرة على مجد الكنيسة

ومما قرّرهُ قداستهُ ان يشاد مشهدٌ مهيب على طراز هندسي بديع قريباً من جسر بلفيوس الممتدّ فوق نهر رومية المسمّى تيبر حيث تمّ انتصار الملك قسطنطين على جيش عدوّه مكسنطيس ليكون تذكاراً باقياً بعد هذه الاعياد لدى اهل القرون الآتية كما انّهُ اعزّهُ الله امر بان يُزاد عدد خدّمة النفوس في الحيّ الجديد الذي توفّرت ابنيتهُ وكثر اهلهُ عند ذاك المعبر وكان قبلاً قليل السكن لا يستلفت الانظار. وقد تقدّم قداسة بيوس العاشر بان تُقام حفلات ثمانية في بعض كنائس رومية. فانتُخبت في ٣٠ آذار في الديامس ذكرًا للشهداء الذين اشتروا بدمهم حرّية النصرانيّة. ثمّ تبعتها حفلات غاية في الرونق في كنيسة مار يوحنّا اللاترانيّة التي فيها كرسيّ البابارات فدامت ثمانية ايّام (٦ — ١٣ نيسان). ثمّ أُقيمت حفلة ثانية في كنيسة الصليب الاورشليمي الملكيّة حيث يكرّم صليب الربّ توالت مدّة ثلاثة ايّام (٢ — ٤ ايار). وفي ١١ منهُ احتفل الحبر الاعظم بقداس بابوي في كنيسة مار بطرس. وسوف تُختم هذه الحفلات بثلاثية في كنيسة مريم العذراء المعروفة بالكبرى في ٦ الى ٨ كانون الاوّل يوم الحبل الطاهر بالبتول. وقد نوى رئيس الكنيسة بكل هذه الاعمال ان ينتهض همّة المؤمنين ليعظّموا ذاك التذكار ويُحلّوهُ محلّ افخم المواسم واجلّها

وهذا ما حدا بنا ايضاً الى ان نكتب في هذا اليوبيل العظيم فصلاً يثبت لقرّائنا الكرام شرف هذا التذكار فيقدّروه حقّ قدره ويشتركوا بالحفلات التي تُقام في اواخر شهر حزيران كما افاد حضرة نائب القاصد الرسولي فيزيدوها رونقاً بحضورهم ويتقرّبوا الى الاسرار المقدّسة ليربحوا الغفران اليوبيلي العظيم ويُشبعوا قلوبهم شكرًا لله عن موهبة الايمان التي نالوها من فضله تعالى ويصلّوا على نيّة الحبر الاعظم ويطلبوا

من الله ان يثير الشعوب المتكعة في ظلام الشرك والضلال فيدخلوا في السفينة البطرسيَّة التي لا خلاص خارجاً عنها

١ النصرانية قبل فوز قسطنطين

لا يُعرَف فضل قسطنطين الكبير على الدين المسيحي الّا بمعرفة احوال النصرانيَّة قبل عهده. كان الرب يسوع في كلامه الى رسله سبق وانبأهم بما سيناهم من ضروب المحن في العالم هم واتباعهم من بعدهم حتى انهُ قال لهم (يوحنّا ١٦: ٢): « ستأتي ساعة يظنُّ فيها كل من يقتلكم انهُ يتقرَّب لله قربانًا »

ولعمري انَّ هذه النبوَّة قد تمَّت بالحرف في كلّ من الاضطهادات العشرة التي توالت على انصار دين المسيح مدَّة القرون الثلاثة التابعة لموته وقيامته حيث صُودر النصارى فقاسوا اجناس العذابات والموت فتأثرهم اعداؤهم كما يتأثرون ضواري الوحوش ليستأصلوا شأفتهم ويأمنوا شرورهم على قولهم

ولكنَّ الاضطهاد الاخير الذي سبق عهد قسطنطين بلغ نهاية الفظاعة ففاقت شناعتهُ على ما سلف من حيث طول مدَّته ومن حيث عمومه لسائر اقطار العالم الرومانيّ الّا القليل منها . واخيرًا من حيث العذابات التي اخترعها ملوك الرومان ليطمسوا آثار النصرانيَّة عن وجه الارض

ان الاحكام التي ابرزها القياصرة في حقّ النصرانيَّة وان أتت بفعلها السيّئ في مدَّة ثلثمائة سنة فتُل بوجيها ما لا يُحصى عدَّدُ من المؤمنين الّا انَّ ذلك التحامل لم يكن متواصلاً دون انقطاع فكان يثور حينًا ويخمد اخرى على حسب شراسة اخلاق اولئك الملوك او فظاظة عمّالهم في الولايات او من جرّاء فتن بعض المبغضين المهيّجين للشعب على المسيحيين. وربَّما وقعت فترات كانوا يكفُّون فيها عن التمثيل بالنصارى. بل وُجد بعض الملوك الذين انصفوهم وعاملوهم بالحلم كالكسندر سافيروس (٢٢٢—٢٣٥) الذي اقام في بلاطه بين آلهته تمثالاً للمسيح. وكفاليان (٢٦٠—٢٦٨) الذين اطلق بعض الحرّيَّة لاساقفة الكنيسة واقرَّ بحقوق النصارى بالاستملاك الشرعيّ. امَّا الاضطهاد العاشر فانَّه ثار ثائرهُ مدَّة عشر سنوات دون انقطاع اعلن به ديوقلطيانوس ولم يزل يتنامى مع وصيفه غاليريوس وتابعهما عليه

مكسيميانوس هرقلس ثم القيصران ساويروس ومكسنطيس بن مكسيميانوس فسالت الدماء سيولًا زاخرة متوالية ظنُّوا بسببها انَّهم قطعوا دابر النصرانيَّة حتى ان مكسيميانوس وغاليريوس افتخرا بانهما محوا اسم المسيحيين لكثرة الذين قتلوهم في سبيل دينهم فنكفى بذلك دليلًا على طول مدَّة هذه المحنة وقساوتها

وكذلك عموم الاضطهاد فانَّهُ قبل ديوقلطيانوس كان منحصرًا في بعض انحاء الدولة الرومانيَّة فتُفقد نيرانهُ تارةً في الشرق وتارةً في الغرب او في بعض الولايات كايطالية في اضطهاد نيرون ودومطيانوس وغالية في عهد مرقس اوراليوس . وحينًا كانت المصادرة لطبقة خاصَّة من النصارى كاضطهاد مكسيمينوس الثراقيّ (٢٣٢ — ٢٣٧) الذي تتبَّع الاساقفة خصوصًا . وقلَّما شملت تلك الاضطهادات كلّ تخوم الدولة الَّا في عهد داقيوس (٢٥٠ — ٢٥١) . امَّا الاضطهاد الاخير فانَّهُ ضغط على النصارى في كلّ الجهات ضغطًا هائلًا لم يكد ينجو منهُ بلد اللهمَّ الَّا بلاد غاليَة حيث كان يملك بصفة قيصر قونسطنس كلور ابو قسطنطين الكبير فلم يجد في تتمَّة دين المسيح ما يستوجب تلك المعاملات البربريَّة لا بل اكرمهم اذ رأى في امانتهم لدينهم ضمانًا على صدق خدمتهم للملكهم . وساعد الوثنيين على تعميم تلك الاضطهادات تواطؤ امبراطورَيْن واربعة قياصرة شرقًا وغربًا على متابعة خطَّتهم الجائرة المصممة على تدمير النصرانية واطفاء جمرتها . فترى التقاليد الحيَّة واخبار المؤرخين المعاصرين والسجلَّات الدوليَّة ومدافن الشهداء كلُّها تتَّفق على بيان انتشار ذاك الاضطهاد الى اقاصي المسكونة . وكان الحكَّام اذا جاؤا في مدينة يدعون كلّ نصاراها فيعرضون عليهم الاختيار بين احد امرين امَّا جحود ايمانهم وامَّا الموت لا مناص منهما . وربَّ مدينة بلغ عدد شهدائها المئين والالوف . وهذه الاحكام لم تختصّ بالرجال بل شملت الصغار والكبار الاغنياء والفقراء ولم تستثنِ النساء والعذارى . فانَّ شهداء دين المسيح شرَّفوا كلّ اطوار عمر الانسان وكلّ طبقات المجتمع الانساني وكلّ اجناس البشر

وكما امتاز الاضطهاد العاشر بمدى زمانهِ وشموله لانحاء العالم كذلك فاق على الاضطهادات السابقة بشدَّة عذاباته . فانَّ للتعصبين ليفلُّوا شباة عزم المؤمنين اخترعوا

من العذابات ما يقشعرّ لوصفه البدن. فكانوا يتفنّنون في التمثيل بالشهداء ويطيلون عذاباتهم الساعات والأيام ربما تعجز فيهم كلّ حيلهم فيقضون عليهم بالموت بعد ان اذاقوهم ما هو اشدّ من الموت. حتى صحّ فيهم قول الرسول في رسالته الى العبرانيين (١١ : ٣٣—٤٠) : «انهم بايمانهم قهروا الممالك وعملوا البرّ ونالوا المواعد وسدّوا افواه الاسود واطفأوا حدّة النار ونجوا من حدّ السيف وتقوّوا من ضعف . . . وعُذّب آخرون بتوتير الاعضاء والضرب . . وآخرون ذاقوا الهزء والجلد والقيود والسجن . رُجموا ونشروا وامتُحنوا وقُتلوا بحدّ السيف وساحوا في جلود الغنم والمعز وهم مُعوَزون مضايَقون مجهودون . . . وكانوا تائهين في البراري والجبال والمغاور وكهوف الارض فهؤلاء كلهم مشهود لهم بالايمان . . . »

*

تلك كانت احوال الكنيسة لمّا ظهر قسطنطين الذي كان اصطفاه الله لينقذ المؤمنين من بلاياهم

كان قنسطنس كلور قائداً من قوّاد الرومان البرّيين فرقّاه ديوقلطيانوس الى رتبة قيصر الذي كان كشتيتان الامبراطور وارسله الى بلاد غالية ليحكم على قسمها وشعوبها سنة ٢٩٣ . وكان لقنسطنس ابن وحيد يدعى قسطنطين اولدته له امرأته هيلانة المسيحيّة الوطنيّة الاصل فنشأ قسطنطين في حجرها محبّاً للفضيلة مزدانا بالخصال الفريدة التي اهّلته لاشرف المناصب فاحبّ ديوقلطيانوس ان يبقى بقربه في نيقوميدية عاصمة ملكه ليتدرّب على آداب الحرب

فاجاب قسطنطين الى رغبة ملكه وعمره اذ ذاك لا يكاد يتجاوز العشرين فبقي بعيداً عن والده منقطعاً الى خدمة مولاه بكل نشاط نحو عشر سنوات اضحى في اثنائها محبوباً لدى الخاصّ والعامّ ولاسيّما لدى الجنود الذين كانوا يطرئون شهامته واخلاقه الرضيّة

ثمّ اضطرّ ديوقلطيانوس الى مبارحة تدبير الدولة سنة ٣٠٥ وخلفه في منصبه السامي غاليريوس الذي عرف ميل الجنود الى قسطنطين فصرف جهده في نصب الشرك لهذا الامير لئلّا يكون يوماً عثرة له في استبداده . لكنّ قسطنطين انتهز يوماً الفرصة المناسبة وفرّ عن غاليريوس لحق بابيه في بلاد غالية ونجا من مخالب عدوّه

فطار ابوهُ فرحاً لوصولهِ اليهِ سالماً واخذهُ معهُ لمحاربة البكتيين في بريطانية فعادا ظافرَين سالمين. الَّا ان قسطنس ما لبث ان شعر بدنوّ اجلهِ فقدَّم ابنهُ لجندهِ كخلفهِ في الحكم من بعدهِ شاكرًا لله على كونهِ احظاهُ بهِ قبلَ وفاتهِ . فلمَّا اسلم الروح تألَّب الجنود واعلنوا ابنهِ قسطنطين ليس قيصرًا فقط بل امبراطوراً واقسموا لهُ الطاعة المؤبَّدة

فلمَّا بلغ الخبر الى غاليريوس كتم الامر في نفسهِ خوفاً من شغب الجند لكنَّهُ كتب سرًّا الى صهره مكسنطيس في رومية الذي كان يقاسم اباهُ مكسيانوس في منصب الامبراطوريَّة وحضَّهُ على مقاتلة قسطنطين. على انَّ مكسيانوس وابنهُ مكسنطيس كانا يخافان طمع غاليريوس اكثر من قسطنطين فاتَّفقا على محاربة القيصر ساويروس الذي كان غاليريوس اقامهُ في ميلانو فغلباهُ وقتلاهُ في راڤنَّة واذ سار غاليريوس الى ايطاليا لينتصر لساويروس ويفتح رومية عاد خائباً الى نيقوميدية وضاعف اضطهادهُ للنصارى

وكان قسطنطين في تلك الاثناء يحارب مع جيشهِ قبائل الجرمانيين والفرنك المتجمّعة لخلع نير الرومان فظفر بها مرَّتين . ثمَّ علم بانَّ مكسيانوس ومكسنطيس تآمرا على محاربتهِ فسار اوَّلاً لمحاربة مكسيانوس فانتصر عليهِ وفرَّق جيشهُ ولم يشأ ان يقتلهُ رفقاً بشيخوختهِ لكن ذاك الشيخ الدهين كمن لهُ سرًّا وعزم على قتل ابن قُسطنس ولعلَّهُ كان نال اربهُ لولا فوستا زوجة قسطنطين وابنة مكسيانوس التي انقذت زوجها من مكائد ابيها فدارت الدوائر على الكائد وسقط في الحفرة التي حفرها لقسطنطين

ثم تواردت الاخبار الى ابن هيلانة بان مكسنطيس جيَّش الجيوش ليناجزهُ القتال فلم ينتظرهُ قسطنطين بل دخل ايطالية ومرَّ بميلانو حيث كان ليقينيوس مالكاً بعد ساويروس فوعدهُ قسطنطين بان يزوّجهُ باختهِ قسطنسية. وتعاهدا على الصلح ثمَّ واصل سيرهُ الى رومية وتحفَّز لمنازلة عدوّهِ الذي كان اضحى عبئاً ثقيلاً على اهل دولتهِ يسومهم خسفاً ولا يرعى لهم حقاً ولاسيَّما النصارى منهم فانَّهُ كان اهدر دماءهم واستصفى اموالهم وجعلهم طعمةً لكل طامع

وفي تلك الاثناء اذ كان قسطنطين يتصيد عدوَّهُ في رومية حظي بتلك الرؤيا

التي مهّدت الطريق لتنصره . ودونك الخبر كما رواهُ اوسابيوس القيصري الذي سمعهُ من قسطنطين نفسهِ فاخبرهُ بهِ بعد القَسَم مثبتاً لصحّة روايتهِ قال اوسابيوس في كتاب حياة قسطنطين :

« وهنا لا بُدَّ لي ان اروي روايةً صادقة سمعتُها من فم قسطنطين عينهِ بحيث لا يستطيع احد ان ينكر صحّتها . وقد كرّرها غير مرّة على مسامعي لمّا حظيتُ بمنادمتهِ مؤكداً لي صدقها بالقسم قال : وبينما كنّا سائرين في عصر بعض الايام والشمس مائلة نحو الافق لاح لنا في السماء فوق الشمس المشعّة صليبٌ منير . فرأيتهُ رأي العين وأستشهد الله على صدق قولي وكانت كتابة على الصليب تُقرأ جليًّا على هذه الصورة (Ἐν τούτῳ νίκα) « فُز بهذا » اي بهذه العلامة تنتصر . ولا اذكر بالتدقيق المكان الذي كنّا بلغنا اليهِ ولكنَّ الرؤيا كانت عوميّة قد شهدها الجيش باسرهِ واخذهُ منها العجب » . واردف اوسابيوس قائلًا : « وبقي قسطنطين غائصاً في بحر الافكار في ذاك المساء حتى ادركهُ الليل فنام واذا بالمسيح ابن الله ظهر لهُ في حلمهِ وفي يدهِ العلامة التي رآها في الجوّ وامرهُ بان يرقمها على اعلامهِ فتكون لهُ رهينة النصر

« فلمّا افاق الملك من نومهِ ارسل واحضر الصاغة فوصف لهم العلامة كما عاينها فقاموا بعملهم احسن قيام وقدّموا لهُ مثالًا منها رصّعوهُ بالذهب والجواهر الثمينة ثمَّ رقموها على اعلام الجيش وقد رأيتُ هذه العلامة مرارًا عديدة على الرايات العسكريّة وهي عبارة عن قناة مستطيلة مغشّاة بالذهب كان يعترضها في اعلاها عارضة على شكل صليب كان يتحدَّر من طرفهِ نسيج من الارجوان مرصّع بالجواهر الساطعة النور على صورة عجيبة كانت تأخذ بالابصار . وفي رأس القناة كان اكليل من الذهب والحجارة الكريمة في وسطهِ الحرفان الاوّلان من اسم المسيح (باليونانيّة) على هذه الصورة ☧ . ومذ ذاك الحين حفر الامبراطور هذا الشعار على خوذتهِ وجرى جيشهُ تحت ظلّ تلك الراية »

هذا ما رواهُ اوسابيوس صديق قسطنطين ومؤرخ حياتهِ . وكان وصول الملك الى رومية في شهر تشرين الاوّل من السنة ٣١٢ . فما لبث الجيشان ان نزلا ساحة

١ صورة رأس قسطنطين الكبير عن تمثال قديم ٢ـ النوط التذكاري الذي ضُرب بامر
الحبر الاعظم للسّنة السادسة عشرة لانتصار قسطنطين يمثل صورة الملك قسطنطين وقداسة بيوس العاشر

الوغى وآلهة مكسنطيس تعضدهُ بالظفر وكانت جنود مكسنطيس ضعف جيش قسطنطين الّا ان مراعيد السماء قامت لهم مقام العدد

فلمّا كان اليوم الثامن والعشرون من الشهر المذكور التحم القتال بين الفريقين وكان مكسنطيس يتلهّى بحضور الالعاب مع الشعب بينما كان جيشهُ يستقتل لاجلهِ . وكان سمع سَدَنة آلهته يقولون انهُ ان خرج من رومة قُتل فاكتفى بان يرسل الاوامر الى قوّادهِ . لكنّ الشعب اخذ يقرّعهُ على جبنهِ وعدم مروّتهِ فلم يرَ بُدًّا من ان يلحق بعسكرهِ لكنّهُ طلب قبل خروجهِ ان يعرف عاقبة القتال فكان جواب كهنته ملتبساً هذا منطوقهُ : « في هذا النهار يهلك عدوّ الشعب الروماني » فزعم انّ ذاك العدوّ هو قسطنطين وخرج الى جيوشهِ . فكان انضمامهُ الى جنودهِ داعياً لاستنهاض همهم لكنّ قسطنطين اراهم الصليب وذكّرهم انّ عدوّهم جاء ليلقي بنفسهِ تحت وحة سيوفهم فكان لكلامهِ احسن وقع في قلوبهم فهجموا هجوم الاسود على مكسنطيس وانصارهِ فالجأوهم الى تولية الأدبار فتأثر جيشُ قسطنطين اعقابهم حتى بلغوا الى الجسر الممتدّ فوق نهر تيبر وهو جسر ميلفيوس وكان قليل الاتساع فازدحم الهاربون وسقطوا في النهر فغرقوا وكان من جملتهم مكسنطيس فعرفوهُ وقطعوا رأسهُ وركزوهُ على رمح طويل . فاسرع رؤساء المدينة وفتحوا ابوابهم للملك الظافر فاستقباوهُ استقبال المنقذ والمخلّص وخمدت نار الحرب من ساعتها وشكروا الله على موت الطاغية . وبعد قليل اوفدت المدن وفودها لتعلن خضوعها لقسطنطين . واتتهُ التهاني من البلاد البعيدة تشيد بمدحهِ وتمدّد مظالم مكسنطيس وعلى الاخصّ اهل افريقية الذين طلبوا ان يُرسَل اليهم رأس القتيل ليطمئنوا خاطر الشعب الذي كان خائفاً من جورهِ على افتراض كذب الخبر

٢ حكم قسطنطين بتحرير الكنيسة

على ان هذه الافراح التي شملت العالم الروماني كان فعلها اوقع في قلوب النصارى اذ علموا كيف نال قسطنطين نعمة الظفر فنشطت همهم واستبشروا خيرًا وخرجوا بلا خوف من مخابئهم . وطيّب الملك خاطرهم اذ أعلن انهُ لا يريد لشعبهِ غير السلام كي يعيش الكل في بحبوحة الامن والوئام

وانما هذه المواعيد قد قرّرها الملك رسميًا بعد اشهر مع حليفه ليقينيوس. فلما اعاد لرومية سكينتها ورتّب عمالها وتلافى اضرارها السابقة بدو. تصرّف مكسنطيس رحل الى ميلانو ليحتفل بقران اخته وليقينيوس. وكان اوّل ما فكّر فيه قسطنطين ان يضع منشورًا عموميًا يمنح فيه الحريّة الدينيّة لكل رعاياه فاصدر ذاك الحكم الذي هو كسجلّ تحرير كنيسة الله ودونك اخصّ نصوصه الخطيرة قال:

« من المعلوم انّ الحريّة الدينيّة لا يجوز المضايقة عليها فكل انسان حرٌّ في متابعة الدين الذي يؤثره. وقد صرّحنا سابقًا بان النصارى يجوز لهم ان يتمموا فرائض دينهم دون عائق. ولكي لا يبقى من هذا القبيل ادنى شبهة في مرامنا قد اتّفقنا نحن قسطنطين وليقينيوس المجتمعين في ميلانو على وضع قوانين ثابتة في ما يتوط بعبادة اللاهوت نمنح النصارى وسواهم اجمعين الحريّة في اعتقاد الدين الذي يفضلونهُ لكي نستمدّ بذلك حماية اله السماء علينا وعلى كل مملكتنا. فنعلن اذن جهارًا بان هذه هي ارادتنا المقرّرة بمنشورنا الحالي ان كل من يرغب التديّن بالدين النصراني لا يجوز لاحد ان يعارضهُ في قصده بل تُترك لهُ الحرية التامّة في ذلك... لانهُ يحقّ بعزّ مملكتنا وراحة دولتنا ان كلًّا من ابناء رعايانا يتمتّع بالحريّة الدينيّة فلا توضع عقبات في سبيل خدمة اللاهوت

« وعلاوةً على ذلك ورعايةً لحقوق النصارى نقرّر بان الامكنة التي كانوا سابقًا يجتمعون فيها لصلاتهم ونزعوها منهم تُردّ لهم حالًا دون تعويض امّا اذا كان احد قد اشتراها بماله فليُدفع لهُ ذاك المال من خزينة الدولة على حسب حكم المثمنين. وكذلك الاملاك التي اغتصبوها من افراد النصارى تقضي بردّها لاصحابها بعد اداء ثمنها من بيت المال تعويضًا لمن اقتناها لئلّا تُبخس حقوق احد وينال اهل رعيتنا الامان والراحة

« وعلى هذا المنوال نثبت فعلًا ونقرّر اداء شكرنا نحو الاله الذي مدّ علينا مرارًا ظلّ حمايتهِ. ونزيد انّ هذه البراهة النبيلة بحامنا السامي وجودنا الملكي يُعلَن بها في كلّ مكان ليطّلع عليها الخاص والعام »

هذه اخصّ الاحكام التي اودعها قسطنطين الكبير منشور ميلانو الموقع باسمهِ

وباسم ليقينيوس حليفه وأرسلت الوفٌ من نسخها الى كلّ عمّالها في كافّة اقطار المعمور . أمّا الاصل فوُضع في جملة سجلّات الدولة

لكنّ زمام المملكة الرومانيّة لم تكن باسرها في ايدي قسطنطين وليقينيوس فانّ قسماً من الدولة كان خاضعاً لصاحب نيقوميدية . وقد سبق ان غاليريوس كان يتولّاها لكنّ هذا الملك كان قد أُصيب سنةً قبل انتصار قسطنطين بداء عُضال كانطيوخوس مضطهد بني اسرائيل فكان الدود يرعى احشاءهُ فينبعث منها رائحة كريهة افسدت كل بلاطه فذاق الامرّين واقرّ بان الله كان ينتقم منهُ وفاء عن دماء اوليائه الذين ظلمهم لدينهم . فتلافياً لجوره كتب قراراً منحوم فيهِ بعض حقوقهم لكنّ الموت عاجلهُ فبقي قراره دون مفعول . وقام في الامر من بعدهِ مكسيمينوس دايا ابن اخيهِ فجرى في محاربة النصارى على مثال غاليريوس . وقتل منهم قوماً .

ولمّا بلغهُ ان قسطنطين وليقينيوس اجتمعا في ميلانو انتهز الفرصة فسار الى البلاد الخاضعة لحكم ليقينيوس ليستولي عليها . لكنّ ليقينيوس اسرع وعاد الى مملكتهِ وجمع عساكرهُ فادرك مكسيمينوس دايا قريباً من ادرنة وناجزهُ القتال فكسرهُ وقطع نظام جيوشهِ حتى فتك فيهم واجتاحهم اما مكسيمينوس فهرب الى باب الابواب الى ان بلغ طرسوس فهناك أيس من الظفر فطاب طعاماً واكل اكلاً ذريعاً حتى اكتظّ من الطعام ثمّ شرب السمّ فمات بعد آلام مبرّحة قاسى مضضها مدّة اربعة ايّام فكان موتهُ كموت المضطهدين للنصرانيّة من قبلهِ

٣ لواحق حكم قسطنطين

ان تلك المآثر العظيمة التي ذكرناها لقسطنطين في تحريرهِ كنيسة المسيح لم تكن سوى فاتحة اعمال أخرى عديدة قام بها ذاك الملك الكبير لخير الدين ولاصلاح المجتمع الانسانيّ الذي كانت الوثنيّة هبطت بهِ الى اقصى دركات الذلّ . وها نحن نعدّد بعض تلك الاعمال الشريفة التي تولّاها ليرى قرّاؤنا كم اضحى عالم العمران مديوناً لقسطنطين وكيف فتح للمدنيّة باباً طرقهُ من بعدهِ كل محبّي صلاح الشعوب وخير البشريّة وانّما الفضل في ذلك للدين الذي اعتنقهُ وجاهر بحقوقه رسميّاً في

منشور ميلانو بحيث يجوز لكلّ مؤمن ان يردّد آية يوحنا في رسالته الاولى (٥ : ٤): « انّ الغلبة التي تُغلب بها العالم انّما هي ايمانُنا »

لمّا تربّع قسطنطين في دست الامبراطورية وجد العالم الرومانيّ مقيّدًا بقيود الوثنيّة التي لم يحلّها غير النصارى مفضّلين المنايا على الدنايا . فان دستور الشرائع الرومانيّة كان قلب كل نظام المجتمع الانساني فسحق الضعيف وألّه الملوك وجعل للفحشاء مذابح وللآثام البشرية هياكل فعرف قسطنطين انّ الله الذي نصره على اعدائه قد انتدبهُ لتلافي هذه الشرور فيعيد للخالق وللمخلوق رتبتهما في الهيئة الاجتماعيّة

امّا الخالق فطأطأ لهُ قسطنطين رأسهُ يوم رفع فوق جيشه لواء صليبه فاعترف بالاله الوحيد الذي لهُ وحدهُ المجد والعزّ والجلال الى ابد الدهور . وعاد بعد ذلك وجاهر بذلك الايمان غير مرّة كما فعل يوم اصطبغ بمياه المعموديّة . ويوم جلس في نيقية مع آباء المجمع فعدّ نفسهُ بينهم كاحد المؤمنين . وكلّ مرّة كان يغني الكنيسة الكاثوليكيّة بهباته الملوكيّة او شيّد بيعها . فانّ قسطنطين أقام في رومية واورشليم والقسطنطنيّة وفي امكنة اخرى عديدة بيعاً جديرة بان تُنظم بين اجلّ الابنية الدينيّة واشرف الاعمال الهندسيّة . وقد عدّدها ارسابيوس القيصري في سيرة قسطنطين وكأنها تنطق بايمانه الحيّ واجلاله لكنيسة المسيح

واليه يعود الفضل في تطهير الاماكن المقدّسة واستخراج صليب السيد المسيح وذخائر آلامه من دفائنها برأسطة والدته القديسة هيلانة فاقام لذكرها البازيليقات الموسومة باسمه

ومن دلائل اكرام قسطنطين الدين انهُ لم يشأ السكنى في رومية عاصمة المملكة الرومانيّة لئلّا يزاحم الحبرَ الاعظم في سلطته الدينيّة وعليه جعل لهُ نائباً في رومية لتدبير احوالها المدنيّة وانتقل الى القسطنطينيّة حيث اتّخذ لهُ حاضرةً جديدة . ثم انهُ ليس لدينا صكٌّ يُعلن بدفع قسطنطين حكم مدينة رومية الى الاحبار الرومانيين وانّما هو امرٌ مقرّر انّ الامبراطرة منذ ذاك الحين لم يعودوا يسكنون في رومية ليتصرّف الحبر الروماني بتدبير العالم الكاثوليكي كما يشاء . ولمّا توالت على ايطالية بعد مئة سنة غزوات البرابرة المتحدرين من اقطار الشمال لم تجد الشعوب ملجأً وملاذًا

الّا لدى البابارات وكلّ يعلم انّ القديس لاون الكبير خلّص رومية من ايدي اتيلا وجنسريك وانّ كلّ المظلومين والملهوفين من الخاء العصور كالقديس اثناسيوس والقديس يوحنّا فم الذهب لم يعرفوا غير الكرسيّ الروماني كمنصفهم في بلاياهم . قال القديس غريغوريوس الكبير في رسالته الى يوحنّا بطريرك القسطنطينيّة : « اذا بلغ احدٌ المقام الذي انا فيه تراكمت عليه الاشغال بحيث لا يعلم اهو حبرٌ للكنيسة او هو امير زمنيّ » . وقال غريغوريوس الثاني في رسالته الى الملك لاون : «انّ الغرب كلّه يوجّه بنظره الى ضعفنا فيعتبر شخصنا كوتيد السلام العام والحكم في كلّ الامور ولو شئت جلالك ان تختبر صحّة قولنا لأمكنّا اذا ما ظلمتَ رعاياك الشرقيين ان ندفع بقوّاتهم لمعارضتك انتصاراً للمظلومين »

فترى ان قسطنطين هو الذي سبق واشار الى رفعة الكرسيّ الروماني اذ تخلّى عن رومية لاحبار الكنيسة . وبذلك اكرم شخص السيد المسيح في نائبه على الارض وعلّم الملوك خلفاءهُ من بعده انهُ ينبغي عليهم أنْ يعطوا ما لله لله اذا ما ارادوا ان يؤدّي رعاياهم ما لقيصر لقيصر لانّ صيانة حقوق الله اضمن وسيلة لحفظ حقوق ملوك الارض

*

وكما ردّ قسطنطين للخالق ولدينه مقامهما في نظام الكون كذلك سعى في حفظ حقوق المخلوق باصلاح الشرائع الرومانيّة المجحفة بها ثم توطيدها على دعائم النصرانيّة

واوّل ما استفد فيه كتابة جهده الذود عن حمى الضعفاء . وفي مقدّمتهم الاطفال الصغار . فانّ في جملة شرائع الرومان السيئة كانت سنّة تقضي على الاب بقتل مولوده الصغير اذا ما رأى نفسهُ قاصراً عن اعالته . فألغى قسطنطين هذه السنّة منذ اوائل عهد ملكه فنشر حكماً امر فيه تحت طائلة العقاب الشديد بان الصغار اذا عجز اهلهم عن اعالتهم يُعالون على نفقة الدولة وقد وقّع ذلك الحكم على صفيحة من النحاس كاقدس الشرائع وأوجبها . وكذلك تقدّم بان يُجمع اللقطاء وتُعنى الظئور بامرهم

ومن آفات الشرائع الرومانية اهتضامها لحقوق العبيد . وكانت العبوديّة كادت

تعمّ العالم القديم حتى ان المؤرخ الشهير تاقيتس نفسهُ رأى في هذا الامر غرابة فقال: « انَّ الجنس البشري يكاد لا يعيش الّا لنفعة قليلين » (Paucis vivitur humanum genus) فكان للروماني الحرّ مئون بل الوف من العبيد كانهم طوع بنانهِ لا يجسر احدهم ان ينبس ببنت شفة الّا جُلد وقُتل باصناف العذابات دون ان يطالبهُ احد بفعله وكانت الحروب تنتهي باستعباد المغلوبين فيباعون بَيْع السلع واذا اقتنى احد عبدًا وسمهُ بميسم من الحديد المحمى على جبهته كاذلّ الحيوانات. وان شاء سيّد العبد قتلهُ بعبده كيفما شاء وألقاهُ في بركته للحيتان. وكان العبد منظمًا في سلك الاشياء المادّيّة كانهُ ليس ابن بشر. قال الحكيم الروماني ثارون: « انَّ ادوات الفلاحة تُعَدُّ ثلاثًا: البقرة والعبد والمحراث وليس بينها فرق الّا ان البقرة تخور والعبد ينطق والمحراث لا لسان لهُ ». وقال كاتون المعروف بالمنتقد (Caton le Censeur): « على صاحب المُلك ان ينبذ عنهُ الادوات التي لم يَعُد بامكانه استعمالها كالجاريث العتيقة والخيل العاجزة والعبيد المسنين ». وقد بلغ استحقارهم العبيد الى ان وضعوا هذا المبدأ الغريب: « لا حقّ للعبد » (servus nullum jus habet). ومن ثم كنت ترى عددًا عديدًا من اولئك البائسين ينتحرون امّا غرقًا واما شنقًا لينجوا من حياة امرّ من الموت. وكان الوف منهم يُقضى عليهم بمحاربة الحيوانات الضارية في الساحات العموميّة او بالمبالدة بالسيوف بين بعضهم ربثما يُقتلون فيُهيج موتهم المعاينين لتلك المشاهد الفظيعة. واذ رأى الملك كاليغولا انَّ اقالة الوحوش المجموعة للالعاب العموميّة تكلّف الدولة نفقات طائلة امر بان يلقوا عبيدًا احياء لطعامهم!!

فلمّا ضبط قسطنطين عنان الملك سنَّ شريعة أولى (سنة ٣١٤) حظر فيها استعباد الرجال الاحرار وردّ فيها الحرّيّة لمن ثبتت للقضاة حالتهم الحرّة قبل الحروب الاخيرة. ثم اردفها بسنّة ثانية سنة ٣١٥ نهى فيها عن وسم العبيد في جباههم بالحديد المحمى لانَّ وجه الانسان يمثل صورة الخالق. وفيها ألغى عذاب الصَّلب الذي كان يُحكم بهِ على العبيد مع كسر سوقهم وذلك لاكرام صليب السيد المسيح الذي فدى البشر بموتهِ عليهِ

وفي السنة التالية سوّل لاصحاب العبيد اطلاق الحرّيّة لعبيدهم وكانت الشريعة

الرومانيَّة لا تسمح بالامر الَّا على شروط باهظة خوفاً من فتنة العبيد اما قسطنطين فانَّهُ اقتصر على الاعلان بحرّيتهم امام الاستف والحضور من المؤمنين على حياة عبيدهم وفي السنة ٣١٩ اصدر حكماً اخر نزع بموجبه عن اصحاب الرقيق السلطة على قتلهم الَّا بالمحاكمة وذلك تحت طائلة قَتْل القاتل الظالم . وختم هذه السُّنن الحكيمة بسنَّة خامسة أُلغي فيها المجالدة بين العبيد وغيرهم بالسيوف والمبارزات في الساحات العموميَّة تفكيهاً للشعب سنة ٣١٣

ومن شرائع قسطنطين المشبَعة حكمةً والمفعمة بالروح المسيحيّ ابطالهُ للسنَّة القاضية بالزواج على الجميع دون اختلاف وذلك صيانةً لشرف البتوليَّة في الكنيسة وتنويهاً بمقام العيشة الرهبانيَّة وكان ذلك في السنة ٣٢٠ . وفيها ايضاً اصدر حكماً في معاقبة الخاطفين للبنات وابطل زواجهم ما دامت الفتاة في حوزة مغتصبها . وفي السنة ٣٣٠ ألغى شريعة الطلاق عملاً بتعليم الانجيل الطاهر وحفظاً لكرامة الزواج المسيحيّ

فهذه السُّنن قد وقَّعها قسطنطين بامضائهِ وكلُّها قد نهجت للعالم سبيلاً جديداً فنفى بالتدريج ما كان يُشتمُّ منهُ رائحة الشرك والأخلاق الهمجيَّة

على انَّ قسطنطين في شرائعه التي سنَّها في العشر السنين الاولى من ملكهِ كان يتحذَّر من اغاظة حليفهِ ليسينيوس المالك في بلاد الشرق والمجاهر بالدين الوثني فكان في سننهِ يقتصر على الاحكام الادبيَّة الموافقة لتعليم المسيحيين دون ان يصرّح بذكرها بخلاف الاحكام التي ابرزها بعد ذلك العهد من السنة ٣٢٣ الى وفاتهِ سنة ٣٣٧ فانها تثبت رسوخهُ في الدين كالحكم الذي اعلن به سنة ٣٢٣ وفيهِ منع من ان يُجبَرَ النصارى على مشاركة الوثنيين في بعض حفلات رسميَّة يمتزج فيها الدين . وكذلك حتم بقبول الاقضية التي يقضي بها الاساقفة في الامور المدنيَّة

وكذلك نقود قسطنطين واقنابهُ عليها فانَّهُ بعد انتصارهِ على مكسنطيس تسامحَ بضرب نقودهِ على مثال نقود الملوك اسلافهِ لئلَّا يظنَّ احد انَّهُ دونهم سلطة واقتداراً فترى على بعض محكوكاتهِ الرموز والشارات الوثنيَّة الشائعة من قبلهِ وهو يُدعى في بعضها مثلهم حبرًا اعظم (Pontifex Maximus) اما بعد تفرُّدهِ في السلطان فنقودهُ خالية من تلك الرموز وبينها ما فيهِ اشارة الى الدين المسيحيّ

وكفى بذلك دليلًا على انَّهُ لم يعد يحذر الاعلان الرسميّ بدينهِ على رؤوس الملأ

فالفضل اذن كلّ الفضل لقسطنطين الذي على يدهِ دخل العالم الروماني في طور جديد وبواسطتهِ اندرجت الوثنيَّة التي كان المعلم ترتوليانوس في كتاب دفاعهِ عن النصرانيَّة قابلها بالتين المتمدّد الرؤوس وصارت المملكة الرومانيَّة التي دعاها بالمسيح الدجّال مملكةً نصرانيَّة يدبّرها امبراطور مذعن لتعاليم المسيح . ونُصب لهُ في ساحة رومية قوس ظفر اضحى رمزًا لانتصارهِ على دين الاصنام كما انَّ قوس طيطوس الذي بقربهِ هو رمز على انتصارهِ على مملكة اليهود. ومذ ذاك الحين صحَّ قول الآباء في المسيح انَّهُ هو المنتصر هو المالك هو صاحب التدبير والسلطان (Christus vincit, Christus regnat. Christus imperat) فتمَّت نبوَّة دانيال (ف ٢) عن ذاك التمثال العجيب الذي كان ساقاهُ من حديد المرموز به الى الدولة الرومانيَّة فضربهُ الحجر الصغير المشار بهِ الى السيّد المسيح الظافر وسحق التمثال فصار الحجر جبلًا كبيرًا وملأ الارض كلها (دانيال ٢ : ٣٥)

فما احرى الكنيسة في هذا العام ان تشيد بذكر قسطنطين وتبارك اسمهُ لانَّهُ اجلسها على منصَّة الملك الذي لن يسلبهُ من يدها مغتصب وان كانت الكنيسة الرومانيَّة لم تنظم قسطنطين كما فعلت الكنيسة الشرقيَّة في سلك القديسين لبعض شوائب وجدتها في حياتهِ فانها قد توّجت هامتهُ باكليل من المجد ومثلتهُ في كنيسة القديس بطرس بصورة جنديّ المسيح والمدافع عن حقوقهِ كما انَّها لقَّبتهُ بلقب لم ينلهُ الَّا القليل من البشر فدعتهُ بقسطنطين الكبير